قصة تاريخية

الشيطان – الملاك !!

حدث محمد بن جعفر الزبيدي عن عروة بن الزبير قال :

كان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، فاتكاً لا تؤمن بوائقه ، غضوباً لاتواتيه ، لم يعرف بحلم ساعة ، يطلب ما يشتهي ، لا يحول بينه وبين شهواته أي حائل من نبل أو كرم أو شفقة أو إنسانية ، فإن استعصى عليه مطلب اقتنصه بحد السيف جانياً أو غادراً أو خائناً . فلما أكرم الله الانسانية فأرسل إليها محمد بن عبد الله هادياً ومبشراً ونذيراً اندفع عمير بن وهب يؤذي الرسول ، وينكل بالمؤمنين ، وتفنن في ضروب الأذى وأساليب التنكيل ، ولقي المسلمون منه كل عناء ، ولحقهم من شروره مختلف أنواع الإيذاء ، وكان له ابن لا يقل عنه شرًّا هو وهب بن عمير . وقد اشترك هو وأبوه في حرب المسلمين يوم بدر ، أما عمير فأفلت من القتل والأسر ، وأما وهب فقد وقع أسيراً في يد رفاعة بن رافع !

* * *

قال عروة : مضت أيام وأيام على يوم بدر ، وأعلام قريش في مكة أو من بقي من أعلامها بعد بدر ، مطأطأة رؤوسهم ، مقوّسة ظهورهم من ثقل ما حملوا يوم بدر من عار ، وهول ما فقدوا من أبطالهم ورجالاتهم ، فلما استبدَّ بقلوبهم الغيظ حتى كادت تتمزّق ، وألحَّ الحقد عليهم حتى أكل نفوسهم ، كانوا يخرجون زرافات ووحداناً إلى بطحاء مكة يلتمسون البلوة من الآلام ، أو يتذكرون تلك الآلام ، ويبحثون عما يغسل عنهم عار بدر .

وفي صبيحة يوم خرج عمير بن وهب شارد الفكر ، مسلوب الفؤاد فإذا به يجد صفوان ابن أمية جالساً في (الحجر) مطرق الرأس ساهماً ، يفكر في أبيه الذي صرعه المسلمون يوم بدر ، وما عساه يفعل لإدراك ثأر أبيه ، وبينما هو كذلك إذا به يسمع صوتاً يناديه : عم صباحاً يا ابن أمية ، ما جاء بك إلى الحجر في البكور يا صفوان ؟ قال صفوان بالله لا تنادني

منذ الساعة فإن أميّة ، فلست جديراً بعم أبي حتى أدرك ثأره ، إننا يا عمير قد أمسينا وأصبحنا هذا بنا كأنهم السائبة لا راعي لها ولا رعد ، فهذا مفترق ودك ممزق ، وناد ترى الصديقين يتلافيان في طريق واحد فما يرى أحدهم صاحبه من هول ما يتوقع في نفسه من خزي بدر ، وما جرّه علينا مظلمه المشئوم من فقدان الأحبة البهاليل ! !

قال عمير مبتسماً : ممن تأخذ ثأرك يا صفوان ، أمن محمد أم من أصحابه ؟! فيشمل صفوان ويضطرب ويقول : والله يا عمير لقد رأيت يوم بدر أناساً كالناس ، يضربون ويقتلون فإذا أهويت على أحدهم بسيفي زاغ في الناس فما أبصر غير صبي في عنق أخي أو عمي أو ابن عمي . ولقد كان يستدبرني أحدهم يقاتل قومنا حتى إذا أمكنت منه وعلاه السيف رأيت الرجل من وراء والسيف في ظهر أحد أبناء العشيرة ، فإن كان يا عمير هذا هأذا واتري فما عساي أفعل بهم ، وكيف أدرك ثأري ؟

قال عمير وقد بدت على وجهه علائم الاحتقار بصفوان : أجل يا صفوان بن أمية ، لا يزال الرعب يأكل كبدك منذ لاقيت محمداً وأصحابه يوم بدر ! أي خير ترجوه في العيش بعد أن عمر سائقة محمد غطاريف قومك عمر الجزور ، وبعد أن خلفت عندهم من بنى لنا من الأعلام الصناديد ؟ قال صفوان : والله ما في العيش بعدهم خير ، ولست أرى بعدهم إلاّ حمًا ملفوفاً بهم ، وحياة مجللة بعار ، وقروماً يرصفون في الذل عند أعدائنا الأشرار ! يا عمير هل من مخلص ينجيني من همّ أعانيه ، وعار يلاحقني ؟ : قال عمير : وقد لمعت بالشر عيناه ، وانقلبت صحنته : صدقت يا صفوان ! لا خير يرجى بعد قتل من قتل وأسر من أسر ووالله لولا دينٌ عليّ ، وليس عندي له قضاء ، ولولا عيال أخشى عليهم الضياع بعدي . لركبت إلى محمد حتى أقتله وأهريق في أصحابه فإنّ لي قبلهم علة . إنني وهب أسير في أيديهم فإمّا أبرأت ملتي منهم ، وفككت أسيري ، وأما قتلت محمداً وقتلت فيه ! ! قال صفوان : وقد اغتنم الفرصة : يا أبا وهب ليس فيما من هو مثلك شجاعةً وفتكاً ، وأنك لتفل عن قومك عار الأبد . وترفع رؤوساً قد نكّسها الذل ، وتقيم أعواداً قد أحناها الهوان ، وترغم الدنيا على التحدث باسمك في كل مكان وكل جيل ، وتخلف من بعدك ذكراً حسناً ليس لقصي بن كلاب ولا لابنه عبد المطلب ! سيقول الناس : لقد أنقذ عمير ابن وهب

شرف قريش ، وكنت سنا لهم والخلود ! قال عمير وقد اربدّ وجهه : ديني وعيالي يا صفوان ؟ قال صفوان : عليّ دينك أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ! لا يسعني شيء ويعجز عنهم ! قال عمير : حقًّا ما تقول ؟ ! قال صفوان : نعم . قال عمير : لا اقالة ولا استقالة ! يا صفوان اكتم شأني وشأنك . ثم انطلق صفوان إلى مهمته ومضى عمير فشحذ سيفه وسمّمه وانطلق الى المدينة ! !

* * *

في مسجد الرسول (ص) بالمدينة يجلس عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويتذاكرون ما أكرمهم الله به من نعمة النصر ، وعزّة الدين قال عمر : لقد كان يوماً من أيام الله ، وإن أصدق فلهذا اليوم ما بعده ، لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . . . (الآيات) .

قال نفيٌ من شباب المسلمين كان له يوم بدر بالمشركين أفاعيل هو مُعَاذ بن عمر بن الجموح : والله يا أبا حفص لقد كنت أحمد إلى الرجل بسيفي أضربه فإذا برأسه تطير قبل أن يمسها السيف ، ولقد كنت أكون وما بيني وبين المشرك أحد فأسرع إليه بضربة . فإذا قد نبع بيننا رجل فضربه قبل أن أضربه . ثم لا أدري بعد أصعد السماء أم ابتلعته الأرض ، فأيقنت إن الله هو الصانع ، وإن الله لابدّ ناصر جنده ، وبالغ أمره ، وبينما القوم كذلك وإذا برجل ينيخ بعيره على باب المسجد فينظرون إليه . قال معاذ أنه متوشح سيفه ، تقدح عيناه بالشرر ، وثم محنته على الغدر وسوء الطوية ، قال عمر — وقد انتفض انتفاضة عرفها القوم — : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلاّ لشر ، وهو الذي حرّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر ثم هبّ وهبّ من حوله وقوفاً ، وأيديهم على مقابض السيوف . قال عمر : احذروا الرجل وخذوا عليه الطريق حتى أدخل إلى رسول الله (ص) فإن أذن له النبي بالدخول فادخلوا قبله على رسول الله فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فانه غير مأمون . وأنتم أنصار الله وجند رسوله فكونوا عيوناً على هذا الكلب وخذوا حذركم . ثم دخل عمر إلى رسول (ص) . فقال يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ! قال ص : فأدخله عليّ ! فخرج عمر إليه . فأخذ بحمالة سيفه في عنقه

فليمه بها . وقال للانصار أدخلوا على رسول الله فدخلوا ودخل عمر وهو متسلح بتلابيب عمير فقال ص : حين رآه كذلك : « أرسله يا عمر » « ادن يا عمير » فدنا ثم قال عمير : عموا صباحاً ، فقال ص : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير . فالسلام تحية أهل الجنة ! ! ! » . فقال عمير : أما والله يا محمد ان كنت بها لحديث عهد . قال ص : فما جاء بك يا عمير ؟ قال عمير : جئت لهذا الاسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه . قال ص : فما بال السيف في عنقك ؟ قال عمير : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا يوم بدر شيئاً ؟ قال ص : أصدقني ما الذي جئت له ؟ قال عمير : ما جئت إلا لذلك ! قال ص : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على ان تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير بعد صمت طويل : أشهد أنك رسول الله ! قد كنا يا رسول الله ! نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ! فالحمد لله الذي هداني للاسلام وساقني هذا المساق ، أشهد ألا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله ، ثم وقع مغشياً عليه ، فلما أفاق قال (ص) لاصحابه : فقهوا أخاكم في دينه وأقرءوه القرآن . وأطلقوا له أسيره » ! ! قال عمير : يا رسول الله اني كنت جاهداً على اطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل . وأنا أحب أن تأذن لي في المشركين وفي دينهم ! فأذن له عليه السلام ، وهكذا تحول شيطان قريش وفاتكها الجبار الى ملاك رحيم ، وقطعة من الايمان الحي ، وهكذا أصبح عمير بن وهب الذي جاء لاغتيال محمد — من أصدق المؤمنين به الهاجمين عنه أصبح أهدى الناس أذى للمسلمين ، أشد الناس حفاظاً على الرسول وحماسة عن الاسلام .

قال عروة : وقد حدث عمير عن نفسه فقال : والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً لقد بارحت مكة وما أحد من خلق الله أبغض الى قلبي من محمد ، واني لعازم على قتله ولو مال بيني وبينه أهل الارض قاطبة ، فما أن وصلت الى المدينة حتى أتاني في روعي أن السماء توشك أن تنقض على الارض ، وما أن وصلت إلى باب مسجد الرسول حتى خيل اليّ أن بعيري يسخر مني . وان الارض قد كرهت أن تحملني ، وتبدى لي المسجد أسياقاً متلاصقة .

وطفت كل ذرة من الفبراء قد غدت سيفاً مهدوداً لمحاربتي ، وما أن لبثي عمر حتى خلتني بين صخرتين عظيمتين تضغطان عظامي ، حاولت أن أصرع عمر . وحدثتني نفسي بذلك ولكنني لبثت الى نفسي وقلت لقد جئت لمن هو أعظم من عمر ، فان مهاجرته حيل بيني وبين طلبتي فأمسكت . فلما دخلت على الرسول ، ولا أحد أبغض إلى قلبي منه ، وجدت من حوله رجالاً قد شدّت أبصارهم اليّ وان هذا لبريقاً يسرع الشجعان غيرتي ، ولكنني لم أعمل بهم ، وحادثت الرسول وأطلت علّي أصيب من القوم غرّة ، فأختلس أنفاسهم ، ولقد واتتني الفرصة غير مرة . فقد كان القوم كلما نطق الرسول خفضت أبصارهم فأريد اغتنام الفرصة فاذا بيني وبين الرسول حائل . وأقسم لقد كنت كلما تحسست مقبض سيفي وجدت حوله عشرات من الأيدي كالحديد أحسها ولكن لا أرى أصحابها ، وكلما هممت بذلك رأيت أسيافاً وحراباً تسد الفضاء بيني وبين الرسول ، وتبدّى لي الرسول بعيداً ، فأيقنت أن الرجل مصنوع له ، وان الله حائل بيني وبينه كما قال محمد (ص) . فلما كذبت على الرسول . وما أراني كذبت غيرها والحرب خدعة — فواجهني بما كان بيني وبين صفوان أيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه ، فارتجّ عليّ وعرضت على عقلي ما أنا فيه ، واختبرت نفسي ، وخبرت ما لديّ من شواهد على صدق محمد فلم أتمالك أن قلت أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله . وأصبحى قلبي مملقاً بمحمد وما من أحد من خلق الله أحبّ الى قلبي منه ، وغادرت المدينة وكل قطرة من دمي قد وهبتها لرب محمد، ولفداء محمد ، ودين محمد . وهكذا الايمان يا بنيّ إذا خالطت بشاشته القلوب ، يحوّل النار نوراً والشياطين ملائكة ، والقساة رحماء . وكان الله ورسوله أحبّ إلى المؤمن من نفسه وولده والدنيا وما فيها !!

* * *

صفوان بن أمية في مكة بعد أن أدّى عن عمير دينه وضمّ إليه عياله . أخذ يطوف بأرجائها — لا يقر له قرار — يعلوه البشر ويشرق وجهه إشراقاً عجيباً . وها هو ذا كلما لقي قوماً أو مرّ على محفل ، وقف بينهم قائلاً : أبشروا بوقعة تأتيكم في أيام تنسيكم وقعة بدر ! والناس يتساءلون عما عسى أن تكون تلك الوقعة ! فراقبوا صفوان حتى علموا أنه يكثر من سؤال الركبان عن أبي وهب عمير بن وهب ، فأيقنوا أنّ صفوان لابدّ أن يكون قد أرسله لاغتيال محمد ، وما هي إلاّ أيام حتى قدم عمير بن وهب فتلقاه صفوان قائلاً : مرحباً بالحبيب

ابن الحبيب مرحباً بأبي الأبطال ! وبفخر الرجال ! مرحباً بعمر قريش وفاصل طارها . ومدّ صفوان ذراعيه ليحتضن عميراً ، وعمير يبتسم في سخرية وسخط ثم يقول ويده تجرد السيف من غمده : يا صفوان بن أمية . لقد علمت قريش أن محمد بن عبد الله من أشرفها بيتاً ، وأصدقها حديثاً ، وأعرفها بالأمانة ، ألم تستشر قريش برأيه يوم ولد . ألم تحكّمه في أمورها شاباً ورجلاً ، ألم تلقبه بالأمين وهو أعز ألقابها . هل جرّبتم عليه كذباً ؟ هل عرفتموه بخيانة ؟ يا قوم لقد آمنت بالله ورسوله ، وشهدت وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والذي شرّف محمداً بالرسالة العظمى لأدعونّ إلى الله في أجوافكم ولأملأنها عليكم حرباً أو تؤمنوا بالله ورسوله وهذا سيفي . فمن شاء أن تثكله أمه فليلقني عما أكره ! ومضى الى بيته . أما صفوان بن أمية فقد خارت قواه وزاغت عيناه . وانكبّ على وجهه يسمع لعمير قاعراً فاه ، ومن حواليه رجال صعفون في صمت رهيب يعجبون لعمير وكيف انقلب من عداوة محمد الى الايمان بما جاء به ؟ هذا الذي خرج للغدر والاغتيال كيف يعود داعياً الى ما يدعو اليه محمد . ثم انتبهوا وأفاق صفوان وساروا الى البيت الحرام فاذا بعمير واقف كالأسد الهائج بيده سيفه وهو يقرأ آيات من القرآن: « ق . والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم ، فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتابٌ حفيظ . بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب » .

هذا هو عمير يقرأ القرآن ، وقد أعرض عنه من أعرض من رجالات قريش واستمع اليه من استمع فأخذ القرآن قلوباً مستعدة للايمان . فدخل كثير من العرب الاسلام على يدي عمير الذي أقام بمكة داعياً إلى الله بإذن رسوله ، يؤذي من يتعرض له أو لرسوله أو للاسلام بسوء وهكذا أصبح عمير قوة للاسلام في قلب مكة . وهكذا « يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

وبعد فهذه يا شباب الاسلام قصة البطولة المؤمنة ، والشجاعة البصيرة ، والقدرة العاقلة ، فاسألوا المكابرين من خصومكم هل أسلم عمير بن وهب مكرهاً أم أخذته قوة الحق بوسائل الاقناع بعد أن عرض كل أمره على عقله وقارن ماضي محمد بحاضره فدخل في دينه طائعاً مختاراً ؟ يا شباب الاسلام هبا إلى الله ، جدّدوا الايمان به وجاهدوا في سبيله حق الجهاد ، هو اجتباكم لرسالته ، هبا إلى الله ، وخذوا من عمير مثلاً ، واجعلوا منه قدوة لمن كان يؤمن منكم بالله واليوم الآخر.

الدكتور محمود فياض